كامل كيلانى

قصص علمية

أصدقاء الربيع

رسوم : ماهر عبد القادر

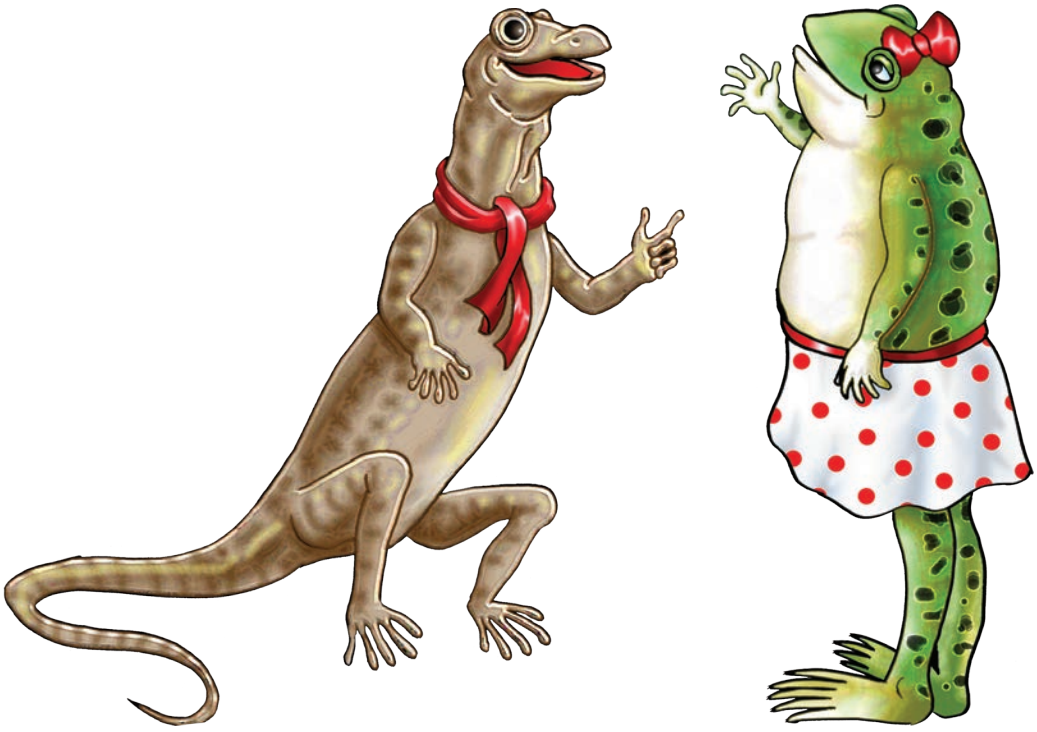

مقدّمة

ولدِى رَشاد :

شَدَّ ما آلَمنى وَحَزَنَنِى أَنْ تُحْرَمَ تِلْكَ الْمُتَعَ الْعَقْلِيَّةَ الَّتِى يَنْعَمُ بِها فى الْبِلادِ الْمُتَحَضِّرَةِ الأُخْرَى أَتْرابُكَ ولدَاتُك ، أَعْنِى الْبَناتِ وَالْبَنِينَ الَّذِينَ وُلِدُوا فى زَمَنِ وِلادَتِكَ وَأَصْبَحُوا الآنَ فِى مِثْلِ سِنِّكَ .

وَقَدْ آلَيْتُ (حَلَفْتُ وَأَوْجَبْتُ) عَلَى نَفْسِى أَنْ أُسْلِيَكَ وأُثَقِّفَك (أُعَلِّمَكَ) وأُقَرِّبَ لَكَ ـ جَهْدَ ما أَسْتَطِيعُ ـ تِلْكَ الثِّمارَ اليانِعَةَ (الَّتِى طابَتْ وحانَ قِطافُها) ، فَتَرْجَمْتُ وَقَبَسْتُ لَكَ مِنْ طَرائِفِ القِصَصِ نُخْبَةً مُخْتارةً تَنْعَمُ بقراءَتِها ودَرْسِها ، كَما نَعِمْتَ بِدَرْسِ الْقِصَصِ الْجُغْرافِيَّةِ مِنْ قَبْلُ . وَلَنْ يَكُونَ إِعْجابُكَ بِهذِهِ الْقِصَصِ الْعِلْمِيَّةِ أَقَلَّ مِنْ إِعْجابِكَ بِتِلْكَ الْقِصَصِ الْجُغْرافِيَّةِ ، الَّتِى ظَفِرَتْ بِإِقْبالِكَ عَلَيْها، وَنالَتْ مَوْفُورَ رِضاكَ .

وَبَعْدُ، فَلَيْسَ لِىَ فِى هذِهِ الْقِصَصِ إِلَّا جُهْدُ الاخْتِيارِ والتَّرْجَمَةِ والاقْتِباسِ . أَمَّا جُهْدُ الابْتِكارِ والإِبْداعِ (الاخْتِراعِ) ؛ فَقَدْ أَلْقَيْتُه عَلَى عاتِقِكَ لِتُؤَدِّيَهُ إِلَى أَطْفالِ جِيلِكَ الْقادِمِ ، مَتَى كَبِرَتْ سِنُّكَ وَكَمُلَتْ ثَقافَتُكَ .

وَلَيْسَ فِى قدْرَتِى أَنْ أَزِيدَ عَلَى وَضْعِ الأَساسِ الصَّالِحِ ، أَمَّا البِناءُ ، فَقَدْ وَكَلْتُهُ إلَيْكَ . وَأَنا عَلَى ثِقَةٍ أَنَّكَ مُحَقِّقٌ هذا الرَّجاءَ ، وَمُؤَدٍّ هذا الدَّيْنَ ـ مَتَى أَصْبَحْتَ فى عِدادِ الرِّجالِ الرَّاشِدينَ ـ إلَى أَبْنائِكَ وَحَفَدَتِك (أَوْلادِ أَوْلادِك) ، عَلَى أَحْسَنِ وجْهٍ ، وَأَوْفَى غايةٍ .

كامل كيلانى

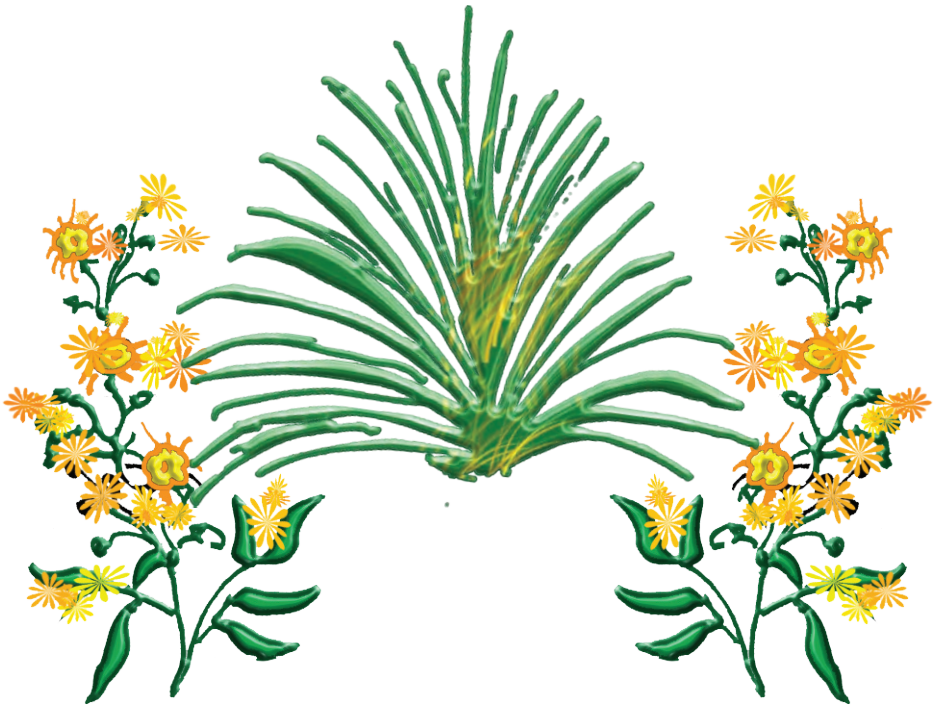

الفصل الأول

١ ـ العالَمُ البَهيجُ

فِى أَصِيلِ يومٍ مِنْ أَيَّامِ شَهْرِ «مارِسَ» هَبَّ نسِيمٌ دافِئٌ يُبَشِّرُ بِمقدَمِ الرَّبِيعِ : مَلِكِ فُصولِ السَّنةِ ، ويُؤْذِنُ بانقضاءِ فصْلِ الشِّتاءِ .

وَقدِ اسْتَقْبَلتِ الكائناتُ كُـلُّها هذا الْفَصْلَ الْبَهِيـجَ فَرْحانةً مُتهلِّلةً ، وَدَبَّتْ حَرارَةُ الشَّمْسِ فَأَنْعَشَتِ النُّفوسَ ، وَأَخَذَتِ الأَرْضُ زِينَتَها فَأَنْبَتَتْ مِنْ كلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ .

٢ ـ يَقَظَةُ النَّائِمِ

وَفِى تِلْكَ السَّاعَةِ أَطَلَّ صاحِبُنا النَّشيطُ : «أَبُو بُرَيْصٍ» مِنْ حُفْرَتِهِ ـ وَكانَتْ عَلَى مَقْرَبةٍ مِنَ الطَّرِيقِ ـ وَحاوَلَ أَنْ يتنَسَّمَ الهَواءَ (يَشَمَّهُ) بَعْدَ أَنْ حُرِمَهُ زَمَنًا طَويلًا . وَما أَخْرَجَ أَنْفَهُ مِنْ حُفْرَتِهِ حتَّى بَهَرَ عَيْنَيْهِ شُعاعُ الشَّمْسِ (غَلَبَ ضَوْءُ الشَّمْسِ نُورَهُما فَكادَ يُعْمِيهما) فَلَمْ تَقْوَيا عَلَى النَّظَرِ إِلَيْهِ ، لِاعْتِيادِهِما ظَلامَ الْحُفْرَةِ أَشْهُرًا عِدَّةً . فَأَسْرَعَ «أَبُو بُرَيْصٍ» عائِدًا إِلَى جُحْرِهِ الْمُظْلِمِ .

وَكانَ «أبُو بُرَيْصٍ» قَدْ نامَ فى تِلْكَ الْحُفْرَةِ ـ الَّتِى اتَّخَذَها دارًا لَهُ ـ خَمْسَةَ أَشْهُرٍ كامِلةً ، ولَمْ تَرَ عَيْناهُ ضَوْءَ الشَّمْسِ فِى أَثْناءِ هذِهِ المُدَّةِ الطَّويلَةِ ؛ فَلَيْسَ فى قُدْرَتِهِ ـ الآنَ ـ أنْ يُواجِهَ شُعَاعَهَا السَّاطِعَ ، دَفْعَةً واحِدَةً .

٣ ـ «أَبو بُرَيْصٍ»

أراكُمْ تَسأَلُونَ ، وَقَدْ عَرَتْكُمْ (أَلَمَّتْ بِكُمْ ، وَعَرَضَتْ لَكُمْ) دَهْشَةٌ .

تُرَى : ما هو «أَبُو بُرَيْصٍ» ؟

وَلَوْ أَمْعَنْتُمُ الْفِكْرَ قَلِيلًا ، لَعَلِمْتُمْ حَقِيقَتَهُ .

وَإِنِّى ذاكِرٌ لَكُمْ بَعْضَ أَوْصافِهِ ، لِتَتَعَرَّفوهُ بِلا عَناءٍ .

أَمَّا لَوْنُهُ فَهوَ رَمادِىٌّ ، وَأَمَّا ذَنَبُهُ فَطَوِيلٌ نَحِيفٌ . وَلَهُ ـ إلى هذا ـ عَيْنانِ حادَّتا الْبَصَرِ ، وأَرْجُلٌ أَرْبَعٌ غايَةٌ فى الْقِصَرِ ، وجِسْمٌ تُغَطِّيهِ الْقُشُورُ . وَهُوَ يَأْوِى إلى جُحْرٍ ضَيِّقٍ ، فى حائِطٍ قَدِيمٍ مُتَهَدِّمٍ ، أَوْ حُفْرَةٍ مَهْجُورَةٍ ، حَيْثُ يَتَّخِذُ مِنْها بَيْتًا يَسْكُنهُ .

أَظنُّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ حَقِيقَةَ «أبى بُرَيْصٍ» الآنَ ! أَلَيْسَ كَذلِكُمْ ؟

نَعَمْ .. فإِنَّ «أبا بُرَيْصٍ» هُوَ الْبُرْصُ الَّذِى تَعْرِفونَهُ وَتَرَوْنَهُ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ بِعَيْنَيْنِ فاحِصَتَيْنِ (باحِثَتَيْنِ) يَعْرُوهُما (يُصِيبُهُما) دَهَشٌ وَحَيْرَةٌ ، وَهُوَ يُطِلُّ عَلَيْكُمْ مِنْ سَقْفِ الْحُجْرَةِ أَوْ حائِطِها .

٤ ـ الرُّفْقَةُ النَّائِمَةُ

وَمَا اسْتَقَرَّ «أَبُو بُرَيْصٍ» فى جُحْرِهِ الْمُظْلِمِ زَمَنًا يَسِيرًا ، حَتَّى عاوَدَهُ نَشاطُهُ ؛ فَنَظَرَ إِلَى رفاقِهِ الْبِرَصَةِ ، فَرَآهَا لا تَزالُ نائِمَةً مُنْذُ

الْخَرِيفِ ؛ فَضَحِكَ مِنْها ساخِرًا ، وقال :

«ها ها ها ! يا لَها من مُتَكاسِلَةٍ نَؤُومٍ (كَثِيرةِ النَّوْمِ) ! إنَّها لا تَزالُ رَاقِدَةً مُنْذُ الْخَرِيفِ ، وَأفْواهُها مَفْتُوحَةٌ ... هيه ! أمَا آنَ لَها أنْ تَسْتَيْقِظَ مِنْ سُباتِها (نَوْمِهَا) ، لِتَسْتَقْبِلَ الرَّبيعَ الْبَهيجَ !» .

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ «أبُو بُرَيْصٍ» كلامَهُ (عادَ إلَى حَدِيثِهِ) ، وَهُوَ يَبْتَعِدُ عنْ رِفاقِهِ (أصْحابِهِ) ، وَيَعْجَبُ منْ تَكاسُلِها ، وَيَقُولُ :

«إنَّها غارِقَةٌ فى نَوْمِها ، فَهِىَ صُمٌّ لا تَسْمَعُ ، وَكَأَنَّنى ـ إذْ أُنادِيهَا ـ أُنادِى حِجارَةً. فَوَدَاعًا ، أيَّتُها الرِّفاقُ !» .

٥ ـ بَهْجَةُ الرَّبيعِ

ثُمَّ خَرَجَ «أبُو بُرَيْصٍ» مِنْ جُحْرِهِ ، لِيَنْعَمَ بِحَرارَةِ الشَّمْسِ ، تارِكًا رُفْقَتَهُ (أصْحابَهُ) مُسْتَسْلِمَةً إلَى النَّوْمِ ، وَأنْشَبَ مَخالِبَهُ (عَلَّقَ أظْفارَهُ) الصَّغِيرَةَ فى حائِطٍ قَرِيبٍ مِنْ جُحْرِهِ ، وَاسْتقبلَ الرَّبيعَ فَرْحانَ مُبْتهِجًا .

وَمَا اسْتَقَرَّ فى مَكانِهِ لَحْظَةً حتَّى تَمَلَّكَهُ السُّرُورُ ، فَبَرِقَتْ عَيْناهُ السَّوْدَاوَانِ ، واضْطَرَبَ ذَيْلُهُ الطَّوِيلُ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ ؛ لِأنَّهُ رَأَى فُرْصَةً سانِحَةً لِتَحْقِيقِ مَأْرَبِهِ (رَغْبَتِه) .

٦ ـ الفَرِيسَةُ

أَتَعْرِفُونَ سرَّ هَذَا الْفَرَحِ ؟ إِنِّى مُخْبِرُكُمْ بِهِ :

لَقَدْ سَمِعَ «أبو بُرَيصٍ» حَرَكَةً خَفِيفَةً طالَما أُعْجِبَ سَمْعُهُ بِطَنِينِها (صَوْتِها) ؛ فابْتهجَ وظَهرَ نَشاطُهُ ، وتَرَبَّصَ (انْتظرَ وتَرَقَّبَ) لانْتهازِ تِلكَ الْفُرصَةِ السَّانِحَةِ ، وأرْهَفَ سَمْعَهُ (أصْغَى وَتسمَّعَ) ؛ حتَّى يَتَبَيَّنَ صاحِبَ الصَّوْتِ .

ورَأَى «أبُو بُرَيْصٍ» ذُبابةً زَرْقاءَ ، تَطيرُ مِنْ حَوْلِهِ ، وتَطِنُّ بالْقُرْبِ مِنهُ : «زى ... زى ...» ؛ فاشْتغلَ بِصَيْدِهَا عَنْ كُلِّ شَىْءٍ وترصَّدَ بها حتَّى لا تُفْلِتَ منهُ ، وحدَّقَ بَصَرَهُ فِيهَا .

ولوْ رأيْتَهُ حينَئذٍ لرأيتَ مَنْظَرًا عَجَبًا ؛ فَقدْ كان يُخرِجُ لِسانَه ويَلْحَسُ شَفَتيْهِ ، مُتحَفِّزًا لاقْتناصِ فَرِيستِهِ فى شَرَهٍ (حِرْصٍ شَديدٍ) لا مَثيلَ لهُ .

ثُمَّ أعادَتِ الْحَشَرَةُ طَنِينَها : «زِى ... زِى ...» ، وطارَتْ إِلَى حَجَرٍ نَاتِئٍ (مُرْتَفِعٍ خارِجٍ) فى طَرَفِ الْحَائِطِ .

فَغَضِبَ «أبُو بُرَيْصٍ» مِنْ فِرَارِهَا (هَرَبِهَا) ، وحَزَنَهُ أنَّها لا تَكادُ تَسْتَقِرُّ فى أىِّ مَكانٍ تَحُلُّ فِيهِ أكْثَرَ مِنْ دَقِيقَتَيْنِ .

وَلَمْ تَمْضِ لَحْظَةٌ أُخْرَى ، حَتَّى اقْتَرَبَتْ مِنْ «أَبِى بُرَيْصٍ» ، وحامَتْ (دَارَتْ) حَوْلَ طَائِفَةٍ مِنَ الْحَشائِشِ ، وَلَمْ تَفْطُنِ الْحَمْقاءُ إلى عَيْنَيْنِ سَوْدَاوَيْنِ تَرْقُبَانِهَا ، وَتَتَرَبَّصَانِ لَهَا .

فَقالَ صاحِبُنا وهُوَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ :

«لَقَدْ حانَتِ الْفُرْصَةُ ، وإنِّى ـ إنْ أَضَعْتُها ـ لأَكونَنَّ مِثالًا لِلْحَماقَةِ والْكَسَلِ !» .

ثمَّ اسْتَعَدَّ «أَبُو بُرَيْصٍ» وتَهَيَّأَ لِاقْتِناصِهَا ـ فِى حَذَرٍ وانْتباهٍ ـ وقالَ :

«واحدٌ ... اثنانِ ...» ثُمَّ هَبَّ (نَهَضَ وقَفَزَ) فِى الثَّالِثَةِ هَبَّةً واحِدةً ، فَأَصابَ طِلْبَتَهُ (حاجَتَهُ) ، وظَفِرَ بِصَيْدِهِ السَّمينِ .

وامْتَلأَتْ نَفْسُ «أَبِى بُرَيْصٍ» غِبْطَةً وسُرُورًا لِنَجاحِهِ وظَفَرِهِ بِتَحْقِيقِ أُمْنِيَّتِهِ ، والْتَمَعَتْ عَيْناهُ ، واهْتَزَّ ذَيْلُهُ فَرَحًا وابْتِهَاجًا .

ثُمَّ قالَ ولِسانُهُ يَخْتَلِجُ (يَتَحَرَّكُ ويَرْتَعِشُ) مِنْ فَرْطِ السُّرُورِ :

«ما أَلَذَّهُ طَعامًا ، وَما أَشْهاهُ غِذاءً ! فَلْنَتَلَمَّسْ واحِدَةً أُخْرَى» .

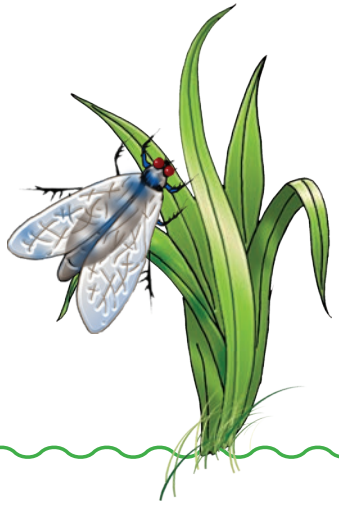

الفصل الثانى

١ ـ فى عُرْضِ الْحائِطِ

وبَعدَ أيَّامٍ قَليلةٍ استَيقظتِ الْبِرَصَةُ مِنْ سُباتِها (نوْمِها) الْعميقِ ، وذَهَبتْ طائِفةٌ مِنْها ـ مع صَديقِها «أبى بُرَيْصٍ» النَّشيطِ ـ لِتَنْعمَ بحَرارَةِ الشَّمْسِ ، وانْتَشَرَتْ عَلَى الْحائِطِ الْقديمِ تَسْتقبِلُ الرَّبيعَ مُبْتَهجةً . وكانتْ تلك الطَّائفةُ تتألَّفُ من : آباءٍ بَدِينَةٍ (سَمينةٍ) مُمتلئةٍ ، وأُمَّاتٍ نحيفةِ الْجِسمِ جَميلةِ المنظَر (أُمَّهات . والأُمَّـاتُ لِلْحَيوانِ كالأُمَّهاتِ لِلإِنْسان) ، وجَمْهَرةٍ (جَماعةٍ) من الأَبْناءِ يَتجلَّى فيها النَّشاطُ والطَّيْشُ .

وكانَ «أبُو بُرَيْصٍ» النَّشِيطُ جالِسًا عَلَى حَجَرٍ ـ بالْقُرْبِ مِنْ رِفاقِهِ ـ وقَدْ شَغَلَهُ التَّفكيرُ عنْهَا فَلَمْ يَتحَرَّكْ مِنْ مَكانِهِ .

٢ ـ «دابَّةُ النَّهْرِ»

فَاقْتَربَ مِنهُ أحدُ أصْحابِهِ ، وسأَلَهُ قائلًا :

«هِيهِ يا صاحِ ! ما بالُكَ مُستَسْلِمًا لِلتَّفكيرِ ، مُبتعدًا عَنْ رِفاقِكَ ؟!» .

فَدَهِشَ «أبو بُرَيْصٍ» لِهذهِ الْمُفاجأَةِ ، وقَفَزَ مِنَ الذُّعْرِ (نَطَّ مِن

الْخَوْفِ) ، ثُمَّ قالَ لِصاحبَتِهِ : «لَقدْ أَسَأْتِ إلىَّ ـ يا «أُمَّ سَلْمى» ـ وقَطعْتِ عَلَىَّ تَفْكيرِى فى صَديقَتِى الْقديمَةِ : دابَّةِ النَّهْرِ !» .

فقالتْ لهُ «أُمُّ سَلْمى» : «ماذا تقُولُ ؟ دابَّةُ النَّهْرِ ؟! مَنْ هىَ ؟ فَإِنِّى لا أكادُ أَذْكُرُها !» .

فقالَ لها «أبو بُرَيْصٍ» : «كلَّا يا صاحبَتِى ، بلْ أَنْتِ تَعْرِفينَهَا ولا تَجْهَلِينهَا . وما أَظُنُّكِ قدْ نَسِيتِ الضِّفْدَعةَ الْخَضْراءَ الْجَميلةَ الَّتى كانتْ تَتحدَّثُ إلىَّ فى الصَّيفِ الْمَاضِى ، وقدْ كُنَّا ندْعُوهَا : «دَابَّةَ النَّهْرِ» .

ما كَانَ أَجْملَ عينَيْها ، وأَبْدَعَ مَنظَرَهَا ، وأَشْهَى حديثَها ...! لقدْ نَعِمْنَا بِلقائِهَا زَمَنًا ، ثُمَّ تَفرَّقْنا فى الْخَريفِ ؛ فَذَهبتْ «دابَّةُ النَّهْرِ» إلى حُفرتِها ـ فى أَسفلِ هذا الْحَائطِ ـ هرَبًا منَ البَرْدِ .

٣ ـ عَوْدةُ الْحَزِينِ

وإنى لأُسائِلُ نَفْسى :

«كيفَ حالُ هذهِ الصَّديقةِ الْعزيزةِ ؟ وماذا آلَ إلَيهِ أَمْرُها ؟ فَهلْ تَتفَضَّلينَ يا «أُمَّ سلْمى» فتُنادِيهَا ، فإِنِّى لِلِقائِها لَعَلَى شَوْقٍ شَديدٍ» .

فصاحتْ «أُمُّ سلْمى» ، وصَرَخَ «أَبُو بُرَيْصٍ» ـ فى نَفَسٍ واحدٍ ـ يُنادِيانِ صاحبَتَهُما : «دابَّةَ النَّهْرِ» . ولكنَّ «دابَّةَ النَّهْرِ» لَمْ تُجِبْ نِداءَهُما ، وقدْ دَعَوَاهَا بأَعْلَى صَوْتيْهِما مَرَّاتٍ عِدَّةً .

فَعادَ «أبو بُرَيْصٍ» إلى مَخْبئِهِ مَحزُونًا مُتألِّمًا ، يُفكِّرُ فى مَصيرِ صاحبتِهِ العزيزَةِ ، ويَخْشَى عَليْها أَحْداثَ الزَّمَنِ وخُطُوبَهُ (نَوائِبَهُ ومَصائبَهُ) .

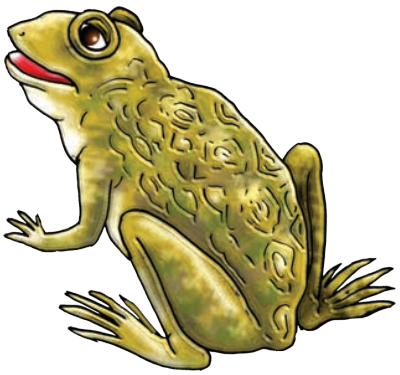

٤ ـ بعد أُسبوعَينِ

ومَرَّ على هذا الْحادِثِ أُسبوعانِ كامِلانِ ، فَدَبَّتِ الْخُضْرَةُ فى الشَّجَراتِ الَّتى تَكْتنِفُ جُحْرَ الأَبارصِ (تُحيطُ بِهِ) . واجْتمعتِ الْحَشراتُ أَسْرابًا (جَماعاتٍ) ؛ فَغصَّ بها (ضاقَ) الْفضاءُ على رُحْبِهِ ، وامْتلأَ الْجَوُّ بطنِينِها وأَهَازِيجِها (أغانِيهَا) الْمَرِحَةِ . ولكنَّ «أبا بُرَيْصٍ» كان فى شُغْلٍ شاغِلٍ ـ عَنْ ذلكَ الْعالَمِ الْبَهِيجِ ـ بالتَّفكيرِ فى مَصِيرِ صاحِبَتِهِ «دابَّةِ النَّهْرِ» . فقدْ شَغَلَهُ الأَلَمُ لِفِرَاقِ تلكَ الضِّفدَعَةِ الصَّغيرةِ الْخَضْراءِ وأُدْخِلَ فى رُوعِهِ (قلْبِهِ) أنَّها لَقِيَتْ حَتْفَها (هلاكَها) .

٥ ـ فرْحةُ اللِّقاءِ

وإنَّهُ لَغارِقٌ فى تأَمُّلِهِ ـ ذاتَ يوْمٍ ـ إذْ رَأَى نَمْلَةً تَسْقُطُ فى الْماءِ . واستَرْعَى بَصَرَهُ ما رآهُ على سَطْحِ الْماءِ مِنْ فَقَاقِيعِ الْهواءِ الْمُتَصاعِدَةِ إليهِ . ولَمْ يَكَدْ يُنْعِمُ النَّظَرَ (يُدَقِّقُهُ) فى مَصيرِ تلكَ النَّملةِ التَّاعسةِ ، حتَّى رَأَى فَمًا عَرِيضًا يَظْهَرُ على سَطْحِ الْماءِ . فصاحَ «أبو بُرَيْصٍ» ، وقدْ فَاضَ قَلْبُهُ سُرُورًا :

«يا للسَّعادةِ ! لقدْ ظَفِرْتُ بِصَديقتِى الْعزيزةِ «دابَّةِ النَّهْرِ» ، وقدْ عَرَفتُ جِلْبَابَهَا الأَخْضَرَ الَّذِى يَزْدانُ (يَتحلَّى) بتلكَ النُّقطِ السُّودِ .

آهٍ ... لقدْ ظَهرَتْ عَينَاهَا الْكبيرَتَانِ ، وظَهَرَتْ تلكَ الدَّائرةُ الذَّهبيَّةُ الَّتى تُحيطُ بهما .. إلىَّ يا «دَابَّةَ النَّهْرِ» ! تَعالَىْ ، أَيَّتُهَا الْحَبيبةُ .. عَجيبٌ .. إنها لا تُجِيبُ! فَلأَرْفَعْ صَوْتِى لعَلَّها تَسْمَعُنى ...

عِمِى صَبَاحًا يا «دابَّةَ النَّهْرِ» ، ولْيَكُنْ نَهارُكِ طَيِّبًا !» .

٦ ـ «أُمُّ هُبَيْرَةَ»

فَسَمِعَ «أبو بُرَيْصٍ» صَوْتًا أَجَشَّ (غَليظًا) ، هُو نَقيقُ صاحبَتِهِ . وقدْ أَجابَهُ فى بُحَّةٍ (غِلَظٍ وخُشُونةٍ) طالَما أَلِفَ سَماعَها منْها :

«مَنْ ذا الَّذِى يُنادِينِى ؟» .

فقالَ لَها وقَدِ اشْتدَّ فَرَحُهُ : «هلُمِّى يا «دابَّةَ النَّهْرِ» .. إلىَّ يا «أُمَّ هُبَيْرَةَ» ! فأَنا صَديقُكِ الْقَدِيمُ «أبو بُرَيْصٍ» الصَّغيرُ الرَّمادىُّ اللَّوْنِ» .

فأَجابَتْهُ «دابَّةُ النَّهْرِ» :

«آهٍ ... أَأَنتَ صاحِبِى الْعزيزُ «أبو بُرَيْصٍ» ؟ مَعْذِرةً يا صديقِى ؛ فإِنَّنى لَمْ أَسْتَطِعْ رُؤْيتَكَ ـ أَوَّلَ وَهْلةٍ (أَوَّلَ شَىْءٍ أراهُ) ـ لأَنَّنِى لا أَزَالُ عاجزةً عَنِ التَّحْديقِ فى الضَّوْءِ ؛ وقدْ بهرَنِى نُورُ النَّهارِ ، بَعدَ أَنْ طالَ مُكْثِى فى ظَلامِ الْقاعِ .

والآنَ أَحْمَدُ اللهَ على لِقائِكَ ؛ فقدْ طالَ شَوْقى إلَيْكَ .

فَخَبِّرْنى .. كيْفَ قَضَيْتَ فَصْلَ الشِّتاءِ ، يا أبا بُرَيْصٍ ؟» .

فقالَ لَها :

«لَقَدْ قَضَيْتُهُ نائِمًا مَعَ رِفَاقِى . فَكَيْفَ قَضَيْتِهِ أَنْتِ ، يا أُمَّ هُبَيْرَةَ ؟» .

فَقالتْ لَهُ :

«لم يُصِبْنِى مَكْرُوهٌ ؛ فَقَدْ غَمَسْتُ رَأْسِى فى الطِّينِ ـ كَما فَعل رِفاقِى فِى الْخَرِيفِ الْماضِى ـ وأَغْمَضْتُ عَيْنَىَّ . ثُمَّ ... ثُمَّ مَاذَا حَصَلَ ؟ هذا ما لا أَذكُرُهُ . لَقَدْ نَسِيتُ كُلَّ ما حَدَثَ لِىَ بَعْدَ ذلِكَ .

لَعَلَّ أَجْسامَنَا قَدْ جَمَدَتْ ـ حِينَ اشْتَدَّتْ وَطْأَةُ البَرْدِ ـ وَأَصْبَحَتْ كالأَحْجَارِ الصُّلْبَةِ ؛ فَطَالَمَا سَمِعْتُ مِنْ جَدَّاتِى أَنَّ ذَلِكَ يَحْدُثُ لنا فى كُلِّ شِتاءٍ» .

٧ ـ الثَّوْبُ الجَديدُ

فَقالَ لَها «أَبو بُرَيْصٍ» ، وَقدْ دَانَاهَا (اقْتَرَبَ مِنهَا) ، وَوَقَفَ أمامَها مَزْهُوًّا فَخُورًا :

«أَنْعِمِى النَّظَرَ فى شَكْلِى ، لَعَلَّكِ تَكْشِفِينَ عَمَّا جَدَّ مِنْ أَنْبَائِى (أَخْبارِى) . أَعِيدى فِىَّ نَظْرَةَ فاحِصٍ مُدَقِّقٍ . أَجِيلِى بَصَرَكِ . أَلاَ تَرَيْنَ شَيْئًا جَديدًا ؟» .

فَقالتْ لَهُ «دَابَّةُ النَّهْرِ» :

«كَلَّا ... لا أَرَى شَيْئًا جَديدًا، يا صاحِ !» .

فَقالَ «أبو بُرَيْصٍ» :

«أَلا تَرَيْنَ الثَّوْبَ الَّذِى أَلْبَسُهُ فى هذا العامِ ؟ ألا تُبْصِرِينَ جِدَّتَه ؟» .

فَقالتْ لَهُ :

«يا لِلْعَجَبِ ! أَأَنْتَ لبِسْتَ ثَوْبًا جَديدًا ؟» .

فَقالَ «أَبُو بُرَيْصٍ» :

«نَعَمْ ، يا صَديقَتِى الْعَزِيزَةَ . فَقَدْ رَأَيتُ ثَوْبِىَ القَدِيمَ يَخْلُقُ

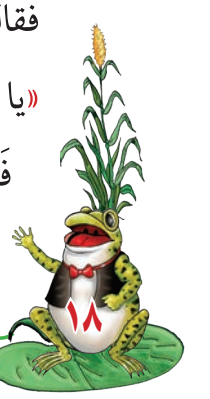

وَيَرِثُّ ، وَلَمْ نَفْتَرِقْ ـ قُبَيْلَ انْتِهَاءِ الْفَصْلِ الماضِى ـ حَتَّى بَلِىَ ذلِكِ الثَّوْبُ ، وَبَدَتْ فِيهِ شُقُوقٌ كَثيرَةٌ . فَضَجِرْتُ بِهِ (ضاقتْ نَفْسِى مِنْهُ وكَرِهَتْهُ) ، وَاضْطُرِرْتُ إِلى تَرْكِهِ ؛ فَحَكَكْتُ جَسَدى بِحَجَرٍ شَدِيدٍ صَلْدٍ ؛ فَتَهَرَّأَ الرِّداءُ الخَلَقُ (تَقطَّع الثوْبُ الْبالِى) وَتمَزَّقَ ، واستَبْدَلْتُ به ـ حينئذٍ ـ ثَوْبى الجديدَ الذى تَرَيْنَهُ الآنَ . وقدِ ارتَدَيْتُهُ طُولَ فصلِ الشتاءِ» .

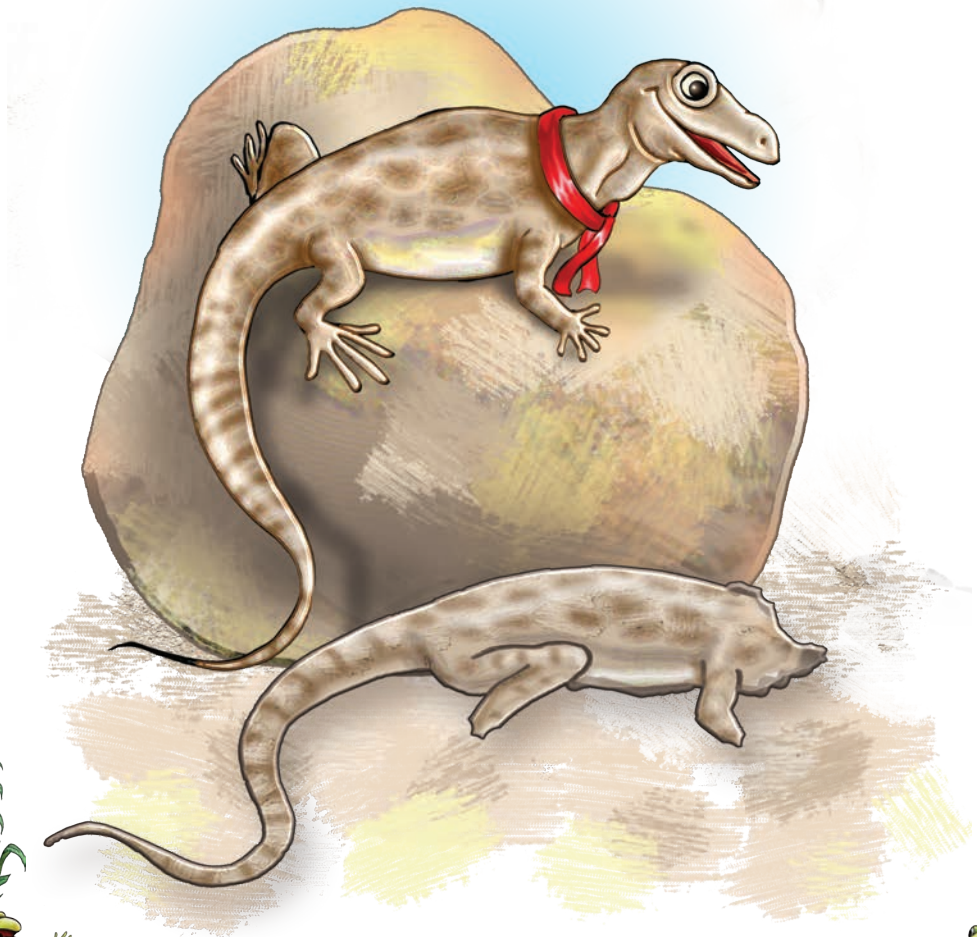

٨ ـ «أبُو سَلْمى»

فَقالتْ «دابَّةُ النهرِ» :

«تَقَبَّلْ ـ يا «أَبَا بُرَيْصٍ» ـ تَهْنئَاتِى بهَذَا الثَّوْبِ الْأنيقِ الذى ارتَدَيْتَهُ .. ولكنْ ... خبِّرْنِى ، يا صاحِ :

كيْفَ حالُ عَشيرَتِكَ وأَهلِكَ ؟ فقَدْ شَغَلَنِى حَديثُكَ الْمُمتِعُ عن سُؤَالِكَ عن أَنباءِ أُسرتِك ؟ كَيف تَجِدُ أَباكَ وإِخْوتَكَ وأَخَواتِكَ ؟» .

فقالَ لَهَا :

«كلُّهمْ بِخَيرٍ ، ما عَدَا أَخى المسكينَ : «أَبا سَلْمَى» التَّاعِسَ . الحَزِينَ !» .

فَقالتْ «دابَّةُ النهرِ» :

«وكَيْفَ تَكْتُمُ عنِّى هَذَا النَّبَأَ الخَطيرَ ؟ كَيفَ يَمْرَضُ أخوكَ فلا تُخْبِرُنى أنهُ مريضٌ ؟» .

فَقالَ «أَبو بُرَيْصٍ» :

«صَدَقتِ ـ يَا عَزِيزَتِى ـ فَقَدْ نَسِيتُ أن أُخْبرَكِ أن «أَبا سَلمى» يُعانِى أَلمًا مُبَرِّحًا (مُتْعِبًا مُؤْذِيًا) ، مُنذُ وَقعَ لهُ ذلكِ الحادِثُ الجَلَلُ (العظيمُ) .

وَلكلِّ مَخْلوقٍ حَظُّهُ منَ السَّعادَةِ والشَّقاءِ جميعًا» .

٩ ـ قاذِفُ الحَصَى

فَقالتْ «دابَّةُ النهرِ» ، وَقدْ تَمَلَّكَها الذُّعْرُ (الخَوْفُ) :

«تُرَى : أىُّ حادثٍ منْ أَحْداثِ الدَّهْرِ قد أَلَمَّ بـ «أبى سَلمى» الظَّريفِ الطَّيِّبِ القَلْبِ ؟» .

فقال «أبو بُرَيْصٍ» :

«لَقَدْ أَلَمَّ بِهِ حادِثٌ خَطيرٌ فى الخَريفِ المَاضِى ... أَلَا تَذْكُرِينَ يا «أُمَّ هُبَيْرَةَ» ـ ذلكِ الطِّفْلَ الذى كان يَمُرُّ بدارِنا كلَّ يَوْمٍ ؟» . فَقالتْ لهُ :

«أتَعْنِى ذلكَ الفَتَى الصغيرَ الذى يُنادِيهِ رِفاقُهُ بِاسمِ «كمالٍ» ، وَيُلَقِّبونَهُ (يُنادُونَهُ) بلَقَبِ «طارِقٍ» ؟

إنْ كُنتَ تَعْنِيهِ ، فَإِنِّى أذكُرُهُ . فَطالَمَا صَفَّرَ وَغنَّى ـ بالقُرْبِ منَّا ـ صَفيرًا مُستَعذَبًا ، وغِناءً مُطرِبًا» .

فقال «أبو بُرَيْصٍ» :

«هوَ بعَيْنِهِ يا «أُمَّ هُبَيْرَةَ» . وَهوَ طفْلٌ ظَريفٌ ، لا عَيْبَ فيهِ إِلَّا أنهُ كان يَلْهُو ـ أَحْيانًا ـ بقَذْفِ الأحْجارِ . وما أَظنُّه يقْصِدُ بذلِكِ إِلى الإِضْرارِ بكائنٍ كانَ ؛ فهُوَ ـ فيما أَعلمُ ـ طَيِّبُ القلْبِ .

وَلكنْ : آهٍ ، من هؤُلاءِ الصِّبْيَةِ ! وَواهٍ من ذلِكِ الحَصَى الذى يَقْذِفُونَنَا به يَمْنةً ويَسْرةً ، دونَ أن يَعْرِفوا مَدَى ما يُلْحِقونَهُ بنا ـ مَعشرَ الحَشَراتِ والدَّوابِّ ـ مِنْ أَذًى !» .

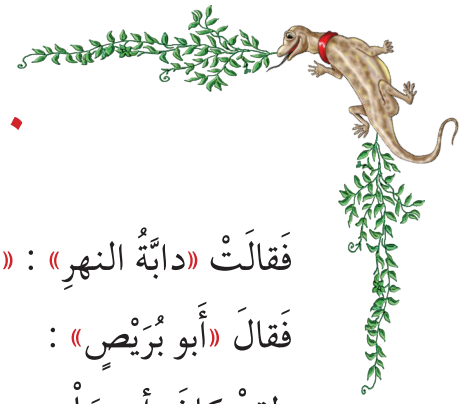

١٠ ـ قِصَّةٌ مُحْزِنَةٌ

فَقالَتْ «دابَّةُ النهرِ» : «خبِّرْنِى : ماذا حَدثَ لأَخيكَ ؟» .

فَقالَ «أَبو بُرَيْصٍ» :

«لقدْ كانَ «أبو سَلْمى» جاثِمًا (قاعِدًا) ـ فى هذا المَكانِ ـ فى الخَريفِ المَاضِى ، يَتَلمَّسُ الدِّفءَ فى حَرارةِ الشَّمسِ . وَإنهُ لَغَارِقٌ فى أَحْلامِه اللَّذيذةِ ، إِذْ رَماهُ «كمالٌ» بِحَجرٍ صَغيرٍ كان يَلهُو بهِ . فصاحَ «أبو سَلمى» مُتوجِّعًا مِمَّا أصابَهُ . فأَسْرَعْتُ إلى نَجْدَةِ شَقيقِى ، فرأَيْتُهُ يتقَلَّبُ عَلَى الأرْضِ ـ ظَهْرًا لِبَطْنٍ ـ وَيتَوَجَّعُ من شِدَّةِ الأَلَمِ . واجْتَمَعَتْ أُسْرَتُنَا حَوْلَهُ تُؤَسِّيهِ ، وَتُسَرِّى عنْهُ ، وَهوَ يبكِى وَيَشْهقُ ـ وما أَجْدَرَهُ بذلكِ ـ فقدْ كادَ الحَجَرُ يَقْتُلُهُ .

مَثِّلِى لنَفْسِكِ (تصَوَّرِى) مقدارَ ما يُعانِيهِ «أَبو سَلمى» ، بعدَ أن قطَعَ الحَجَرُ ذَنَبَهُ ، وَكادَ يُودِى به (يُهْلِكُهُ) ، وَيَقْضى عَلَى حياتِهِ !» .

فَقالَتْ «دابَّةُ النهرِ» :

«يا لشَقائِكَ ، يا «أَبَا سَلمى» ! أَعْزِزْ عَلَىَّ ما كابَدْتَ من أَلمٍ ! ما أَشدَّ حُزْنِى لمُصابِكَ !» .

فَقالَ «أبو بُرَيْصٍ» :

«لقدْ ظلَّ يُعانِى الْآلَامَ زمنًا طويلًا ، وكانَ أَبَواىَ يَجيئانِهِ بالطَّعَامِ لِعَجْزِهِ عنِ الحَركةِ . وما زالَ إلى اليَوْمِ مَحْزُونًا ، شارِدَ الفِكْرِ .

وَقدْ آثَرَ العُزْلَةَ والوَحْدَةَ ، فَما يَكادُ يَبْرَحُ (قَلَّما يَترُكُ) رُكْنَ الْحائطِ» .

فَقالتْ «دابَّةُ النهرِ» ، فى لَهْجَةِ المُشْفقَةِ الحانيَةِ :

«لابُدَّ لِىَ أنْ أعُودَهُ (أزُورَهُ) فى بيْتِهِ ، وَمَعِى هَدِيَّةٌ فاخِرَةٌ . لقدِ اعْتَزَمتُ أن أُهْدِىَ إليْهِ أَوَّلَ عَنْكَبٍ أو عَنْكبةٍ أصْطادُ ؛ لعلَّهُ يَرَى فى هذا الطعامِ شيئًا من السَّلْوَى (النِّسيانِ) والعزاءِ (الصَّبرِ)» .

الفصل الثالث

١ ـ «أبُو مَعْبَدٍ»

مالَتِ الشمْسُ لِلغُروبِ ، والصَّديقانِ لا يَزالانِ يَتحدَّثان أحاديثَ شَتَّى . وإنَّهما لَكذلكَ إذِ الْتَفتَ «أبو بُرَيْصٍ» فَجْأَةً إلى صاحبَتِهِ ، وقال :

«هذا ابنُ عمِّكِ قادِمًا علَيْنا ، يا «أُم هُبَيْرَةَ» . وهوَ آيةٌ مِن آياتِ القُبْحِ والدَّمامةِ ، وقدْ نَسِيتُ اسْمَه ؛ فهلْ تَذْكُرينَهُ لِى مُتَفضِّلَةً ؟» .

فالْتَفتتْ «دابَّةُ النَّهرِ» إلَى القادِمِ ، وحَيَّتْهُ قائِلَةً :

«عِمْ مَساءً يا ابنَ عَمِّىَ «النَّقَّاقُ» ، ولْيَطِبْ لَيلُكَ ! كَيفَ تَجِدُكَ يا أَبا مَعبَدٍ ؟» .

فقالَ لَها «النقَّاقُ» :

«بخَيْرٍ ـ يا ابنَةَ العَمِّ ـ ما دُمتِ أَنتِ بخيرٍ» .

فاسْتَأْنَفتْ «دابَّةُ النَّهرِ» قائلَةً :

«مالِى أَراكَ تُسرعُ فى خُطاكَ ، يا «أبا مَعْبدٍ» ؟ أَلا تَستَرِيحُ مَعنا قَليلًا ؛ لِتَشْرَكَنا فى أَسْمارِنا وأحادِيثِنا المُعْجِبَةِ ، وتتَعرَّفَ بصَديقِى العَزِيزِ «أبى بُرَيْصٍ» ؟ فهوَ يُحِبُّ أن يَراكَ ويَأْنسَ بكَ ؟» .

فقالَ لها «النَّقَّاقُ» :

«مَعذِرةً ـ يا ابْنةَ العَمِّ ـ فَلسْتُ أسْتَطِيعُ البَقاءَ مَعَكُمَا ؛ لأَنَّنى فى حاجةٍ إلى زَيارةِ حَديقةِ الكُرُنْبِ ، قَبْلَ أن يَضيعَ الوَقْتُ . فوَدَاعًا !» .

٢ ـ ابْنُ العَمِّ

فقالَ «أبو بُرَيصٍ» :

«إنَّ ابنَ عمِّكِ «النقَّاقَ» يَجْمعُ إلَى دَمامَةِ المَنظرِ (قُبْحِ الهَيْئَةِ) قِلَّةَ الذَّوْقِ . فهلْ أَنْتِ واثِقةٌ أَنهُ ابنُ عمِّكِ حقًّا ؟» .

فقالتْ «دابَّةُ النهرِ» :

«لَيْسَ فى هذا أقلُّ شَكٍّ . ولَوْ أَنْعَمْتَ النظرَ، لَرَأَيتَنا مُتَشابِهَيْنِ فى أَشْياءَ كَثيرَةٍ ، وإنْ كانَ مَوْطِنُهُ البَرَّ ، ومَوطِنِى الْبَرَّ والبَحْرَ معًا . عَلَى أَنَّ لَهُ مِثلى ...» .

فقاطَعها «أبو بُرَيصٍ» :

«كَيفَ يَكُونُ «النَّقاقُ» ابنَ عمِّكِ ، وهوَ بَطىءُ الخُطَى ، يَمشى مُتَثاقِلًا ، ولا يَقْدِرُ عَلَى القَفْزِ كما تَقفِزِينَ ؟ وكَيفَ تَزْعُمِين أنه يُشْبِهُكِ ، وأَنتِ جَميلَةُ المَنظَرِ ، حَسَنةُ التَّكْوِينِ ، رَقِيقَةُ الْجِلدِ ، لَمَّاعَةُ البَشَرَةِ ؛ عَلَى حِينِ أرَى جِسمَ «النقَّاقِ» مُشَـوَّهًا ، تُغطِّيهِ بُثُورٌ (خُرَّاجاتٌ صَغيرةٌ ودَمامِيلُ) كريهةٌ بَشِعةٌ ؟» .

٣ ـ فَضلُ «النقَّاقِ»

فقالتْ لهُ :

«لَسْت أُنْكِرُ عَليكَ أنهُ يَبْدُو ـ لِمَنْ يَراهُ ـ قَبِيحَ الْمَنْظرِ دَمِيمَ الْخِلْقَةِ . ولكِنْ : أىُّ ذَنْبٍ لهُ فِى ذَلِكَ ؟ أتُراهُ كَانَ قادِرًا عَلَى تَجْمِيلِ صُورتِهِ فَلَمْ يَفْعلْ ؟ كَلَّا ـ يا «أبا بُرَيصٍ» ـ فإنَّ مِن كمالِ عَقْلِكَ وأصالةِ رأيِكَ ألَّا تَغْتَرَّ بالظَّواهِرِ ؛ فهِىَ لا تَدُلُّ علَى حَقيقَةِ النفْسِ المُحَجَّبَةِ عنَّا (الْمَسْتُورةِ المُخبَّأَةِ) .

إنَّ «النَّقاقَ» ـ لَوْ عَلِمْتَ ـ مِن كِرامِ الضَّفادعِ ، وهوَ طَيِّبُ القَلبِ مَحْمُودُ الأَثَرِ . وما أجْدَرَ الناسَ أنْ يُحِبُّوهُ ؛ لأَنَّ حياتَهُ وَقْفٌ عَلى مُحارَبةِ الْحَشراتِ الضَّارَّةِ الَّتى تُتْلِفُ الْحَرْثَ (الزَّرْعَ) ، وتُفْسِدُ البُقُولَ والْخُضَرَ . ولكنَّ النَّاسَ ـ لِسُوءِ حَظِّهِ ـ لا يُنْصِفُونَهُ ، ولا يَقْدُرونَ هذا الصَّنيعَ (لا يَشْكُرونَ لهُ هذا الْجَميلَ) . فكَيفَ لا أُحِبُّ هذا التَّاعِسَ الْمَظْلومَ ؟!» .

فقال «أبُو بُرَيْصٍ» : «لَقدْ حَبَّبْتَهُ إلَى نَفْسى تِلكَ المآثِرُ (المفاخِرُ) الَّتِى قَصَصْتِها عَلىَّ . فما أكْرمَه دابَّةً ! وما أبَرَّهُ مُصْلِحًا !» .

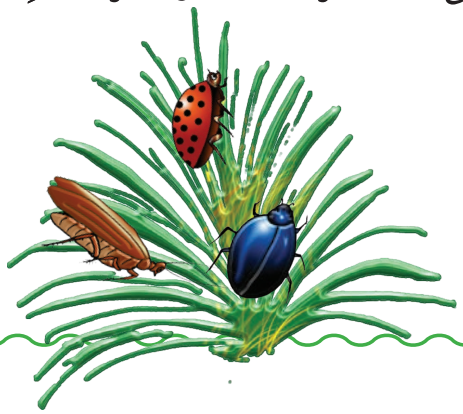

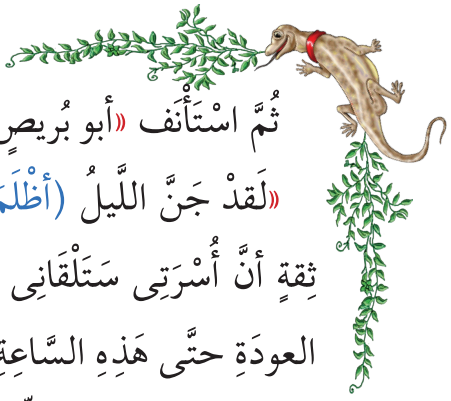

ثُمَّ اسْتَأْنَف «أبو بُريصٍ» قائلًا :

«لَقدْ جَنَّ اللَّيلُ (أظْلَمَ) ، ولا بُدَّ لى مِنَ العَوْدةِ إلى دارِى . وأنا علَى ثِقةٍ أنَّ أُسْرَتِى سَتَلْقَانِى غاضِبَةً ؛ لأنَّنِى تأَخَّرْتُ ـ فى هذا اليوْمِ ـ عنِ العودَةِ حتَّى هَذِهِ السَّاعةِ . فَوَدَاعًا ، أيَّتُها الرَّفِيقةُ العَزيزةُ !» .

فقالتْ لهُ : «إلى اللِّقاء القَريبِ ، يا أبا بُرَيصٍ» .

٤ ـ المَطَـرُ

وكانَ «أبو بُرَيصٍ» يَنامُ علَى صوْتِ الضَّفادعِ ـ كلَّ لَيْلَةٍ ـ ويُطْرَبُ لأَناشِيدِهَا الجميلَةِ ، ونَقِيقِها الذى طالَمَا ألِفَ الاستِماعَ إلَيْهِ .

وبعْد أَسَابِيعَ عِدَّةٍ ، أمطَرَتِ السماءُ ـ فَجْأَةً ـ فى وَقتِ الصَّباحِ ، ثُمَّ هَطَلَتْ (تَتابعَ مَطَرُها) ، وانْهمَرَ المَطرُ (سالَ غَزيرًا كَثيرًا) . حتَّى إذا كادَ النهارُ يَنتَصِفُ ، بَدَّدتْ أضْواءُ الشمسِ ما تَراكَمَ مِنَ السُّحُبِ الكَثيفةِ .

وكان «أبو بُرَيصٍ» ـ فى أثْناء هُطُولِ الأَمطارِ ـ مُلازِمًا جُحْرَه فى نَفَرٍ (جَماعةٍ) مِن أُسْرَتِهِ ، وهُم : «بُرَيصٌ» و«أبْرَصُ» و«سامُّ أبرصَ» ، وغَيْرُهُمْ مِنَ الْأَبارِصِ .

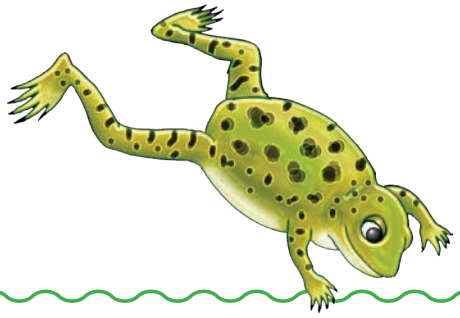

الفصل الرابع

١ ـ حديثُ الصَّديقيْنِ

فَلمَّا تَقشَّعتِ السُّحُبُ وانْجَلَتِ الْغُيُومُ عنِ السَّماءِ ، زالَ عَنهُ ما أَلَمَّ بهِ منَ الضَّجَرِ لِطُولِ احْتِباسِهِ، وهَمَّ بالْخُرُوجِ منْ جُحْرِهِ ؛ فرأَى أمامَهُ صاحبتَهُ «أُمَّ هُبيْرةَ» ، فقالَ لَهَا :

«آهٍ .. لقدْ كُنتُ أُفكِّرُ فى لِقائِكِ الْآنَ . وإنَّما منَعَنِى مِنَ الذَّهابِ إليْكِ : ما كابَدْتُهُ ـ فى هذا الصَّباحِ ـ منَ الضَّجَرِ والأَلَمِ ؛ فقدْ نَزَلَ الْمَطرُ مِدْرَارًا ، فلمْ أَسْتَطِعِ الْخُرُوجَ منْ جُحْرِى .

آهٍ ! ما كَانَ أَسْمَجَهُ صَبَاحًا !» .

فقالتْ «دابَّةُ النَّهْرِ» :

«شَدَّ ما أَخْطَأْتَ فى حُكْمِكَ ـ يا «أبا بُرَيْصٍ» ـ فقدْ كان أجْملَ صَباحٍ عِندَنا ـ مَعشرَ الضَّفادِعِ ـ ولقدْ مَنَّ اللهُ عَلَىَّ بهذا الْمطرِ ـ لِحُسْنِ حَظِّى ـ وأنا أحْوَجُ ما أكُونُ إلَيْهِ .

وما أدْرِى .. كَيْفَ كُنتُ أَصنَعُ لَوْ ظلَّتْ حَرارةُ الشَّمْسِ مُرْتَفعةً ، كما كانتْ فى الْأَيَّامِ السَّابقةِ ؟» .

٢ ـ القُــرُّ

ثُمَّ استأْنَفتْ «دابَّةُ النَّهْرِ» قائلةً :

«ولكنَّ اللهَ ـ سُبْحانَهُ ـ قدْ أغاثَنِى بهذا الْمطرِ ، وأنْقذَ الْقُرَّ ـ أعْنى : بُوَيْضَاتِى ـ مِنَ التَّلَفِ» .

فقالَ «أبو بُرَيْصٍ» :

«بُوَيْضاتِكِ ؟ متى كانَ ذلكِ ؟ كيفَ لَمْ تُخْبِرِينِى ؟

يا لَكِ منْ صَديقةٍ عجيبةٍ ! أَعَنْ مِثْلِى تُخْفِينَ هذا السِّرَّ ؟» .

فقالتْ لهُ :

«كلَّا ... لمْ أُخْفِ سِرِّى عَنْكَ . ها هِى ذِى بُوَيْضَاتِى فى قاعِ الْبِرْكةِ الصَّغيرةِ . انْظُرْ هذهِ الصُّرَّةَ الصَّفْراءَ وما فيها منْ نُقَطٍ سُودٍ صغيرةٍ . أجلْ فيها بَصَرَكَ ، وأَدِرْ نظَرَكَ ، واعلَمْ أنَّ كُلَّ نُقطةٍ ـ منْ هذهِ النُّقَطِ ـ هِىَ بُويْضَةٌ منْ بُوَيْضَاتِى الَّتى حدَّثتُكَ بها الآنَ» .

فقالَ «أبو بُرَيْصٍ» :

«وما بالُكِ تُلْقينَ بها فى الْماءِ ، أَيَّتُهَا التَّاعِسةُ ؟ إنَّكِ ـ إذْ تَفْعَلينَ ذلكِ ـ تُعَرِّضينَها للتَّلَفِ !» .

فقالتْ «دابَّةُ النَّهْرِ» مُتَأَلِّمةً مُتملْمِلةً :

«لَمْ أخْتَرِعْ ذلكَ اخْتِرَاعًا ، ولَسْتُ فيهِ بدْعًا (لَسْتُ أَوَّلَ مَنْ فَعَلَ هذا) . ولَمْ يَدُرْ بِخَلَدِى (لَمْ يَمُرَّ بِخَاطِرِى) أنَّنى أُعَرِّضُ ذَرارِىَّ ـ وهِىَ قِطَعٌ مِنِّى ـ للْخَطَرِ حينَ أُلْقِى بِهَا فى الْمَاءِ ... فإِنِّى رأيتُ الضَّفادِعَ ـ كُلَّها ـ لا تَبِيضُ إلَّا فى الْمَاءِ ... وقدْ فَعَلتُ مثْلَ فِعْلِها ، ولَمْ أَشِذَّ عنْ هذا الْعُرْفِ الشَّائِعِ بينَ «بناتِ نَقْ نَقْ» جَميعًا» .

٣ ـ بعد ثَمانِيَةِ أيامٍ

وَمرَّ عَلَى هذا الحِوارِ ثمانيةُ أيامٍ ، ثم ذهبَ «أبو بُرَيْصٍ» إلى صديقَتِهِ «دابَّةِ النهْرِ» ليَزورَها ؛ فأَلْفَاهَا جاثِمَةً فى الماءِ ـ بِلا حَراكٍ ـ وَقدِ امتَدَّتْ يَدَاهَا إِلَى خَلْفِهَا ، وظَهَرَتْ على سِيمَاهَا (هَيْئَتِهَا) أماراتُ الفرَحِ والغِبْطةِ .

ولمَّا رأتْ صَدِيقَهَا صاحتْ مُتَهَلِّلةً فرِحةً :

«هَلُمَّ ، يا «أبا بُرَيْصٍ» . تَعالَ فانْظُرْ صِغَارِى خَارِجَاتٍ منَ البَيضِ الذى رَأيتَه مُنذُ أيامٍ . آه ! يَا لسَعادَتِى وَهنائِى !» .

فقالَ «أبو بُرَيْصٍ» :

«كَيفْ تَزْعُمينَ أنَّ هذه الدَّوابَّ الغريبَةَ الشَّكلِ هىَ صِغارُكِ ؟ كلَّا يا عَزِيزَتِى ! كلَّا . ما أنتِ بمُصَدَّقةٍ ! ذَلكِ مُحالٌ ، يا دابَّةَ النهرِ» .

فقالتْ لهُ مُرْتاعَةً (خائِفةً) :

«لَسْتُ أَشُكُّ فى أَنَّهُمْ أوْلَادِى ... أَلَا تَرَى هذه الصِّغارَ خارِجةً من بُوَيْضَاتِى ؟ ألا ترَى جمالَ منظَرِها ، وحُسْنَ شكْلِهَا ؟» .

٤ ـ ذَواتُ الْأَذنابِ

فقالَ لها «أبو بريصٍ» وهو يهتزُّ ضاحِكًا :

«أىُّ جَمالٍ تَرَيْنَهُ فى هذهِ الرءُوسِ الضَّخمةِ ؟ لعَلَّكِ تَمْزَحِينَ ؛ ما أظُنُّكِ جادَّةً فى قَوْلِكِ ، أَيَّتُهَا الصَّديقَةُ العَزيزةُ ؟

أَلا تَنظُرِين إِلى أَذْنابِهَا ؟ فكَيْف تَجْلسُ هذه الأَوْلادُ عَلَى الْحشائِشِ كَما تَجْلسينَ ؟ ومتَى كان للضَّفادِعِ أذْنابٌ ، أيَّتُها العزيزةُ البَلهاءُ ؟» .

فاشتَدَّتْ حَيْرَتُها ، وَلَمْ تَعْرِفْ كَيْفَ تُجيبُ صاحِبَها . وَساوَرَها الرَّيْبُ (أَسْرَعَ إليْهَا الشَّكُّ) ؛ فَلَمْ تَجْزِمْ بشَىْءٍ . وإنَّما اسْتَوْلَى عَلَيْها الْحُزْنُ ؛ لأَنها رأتْ تِلكَ الدَّوابَّ الرَّماديَّةَ اللَّوْنِ لَيسَ لها أيْدٍ تَسْبَحُ (تعُومُ) بها فى الماءِ ، وعَجِبَتْ من أَذنابِهِنَّ عجَبًا شديدًا .

٥ ـ آكِلُ النَّباتِ

وَحَانَتْ مِنْ «أبى بُرَيْصٍ» التِفاتَةٌ ، فصاحَ مَدْهوشًا :

«انظُرِى ـ يا صَديقَتِى ـ هاكِ مَوْلُودًا يَأْكُلُ مِنَ النَّباتِ الَّذِى فى قاعِ المـاءِ ! فَخَبِّرينِـى بِرِبِّـكِ : هـلْ رأيْتِ ـ طُولَ عُمـرِكِ ـ ضِفْدَعًـا يَأْكُلُ النَّباتَ؟».

فَقالَتْ «دابَّةُ النَّهْرِ» وقدْ كادَ الْبُكاءُ يَعْقِدُ لِسانَها :

«مهْمَا يَكُنْ منْ أَمرٍ ، فَإِنِّى علَى يَقينٍ أَنَّ هذهِ الدَّوابَّ قدْ خَرجَتْ من بُوَيْضَاتِى ! » .

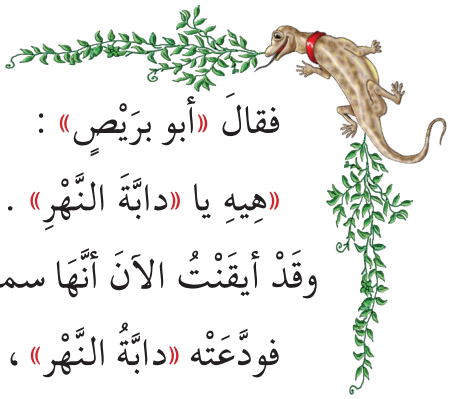

فقالَ «أبو برَيْصٍ» :

«هِيهِ يا «دابَّةَ النَّهْرِ» . لقدْ عرَفْتُ حقيقةَ أمرِ هذهِ الدَّوابِّ الصَّغيرةِ ، وقَدْ أيقَنْتُ الآنَ أنَّهَا سمكٌ» .

فودَّعَتْه «دابَّةُ النَّهْر» ، وقالَتْ وهىَ مَحْزُونةٌ مُتألِّمةٌ :

«لقدْ جَهِلْتُ ـ مَعَ حِرْصِى عَلَى المعرِفَةِ ـ فَمَا أَدْرِى شَيْئًا» .

٦ ـ أُمْنِيَّةٌ تَتَحَقَّقُ

وفى يوْمٍ منْ أيَّامِ «أُغُسطُسَ» الْحارَّةِ ، تَمَدَّدَتْ جَمهرَةٌ منَ الأَبارِصِ عَلَى الْحائِطِ ، واسْتقبَلتْ أشِعَّةَ الشَّمْسِ ، واسْتَسْلَمَتْ للدِّفْءِ والرَّاحَةِ ، وكانَ من عادَتِهَا أنْ تَقْضِىَ وقتَ الهَضْمِ فِى مثْلِ هذا الْمكانِ ، مُخْلِدَةً (مُرْتكِنَةً مُسْتَسْلِمةً) إلى الرَّاحةِ فى تلْكَ الْجِهَةِ المُشْمِسَةِ الْحَبيبةِ إلى نُفوسِها .

وإنَّها لكَذلكَ ، إذْ أقْبَلتْ عليْها «دابَّةُ النَّهْرِ» بَعدَ أنْ صَعِدَتْ إلى سَطْحِ الْماءِ ، وصاحتْ تُنادِى «أبا بُرَيصٍ» بأَعْلى صَوْتِها ـ وقدِ اسْتَوْلَى عليْها الْفَرَحُ ـ قائلةً :

«إلَىَّ ، يا صَديقِى العزيزَ . هُلمَّ لأَزُفَّ إليْكَ بُشْرَى منَ البُشْرَياتِ السَّارَّةِ الَّتى تَمْلأُ قَلبَك غِبْطَةً وتُسْكِنُ البهجةَ خَلَدَكَ (نَفْسَكَ) !» .

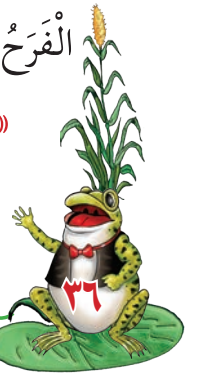

فأَقْبلَ عليْها «أبو بُرَيْصٍ» مُسْتفْسرًا عنْ جَلِيَّةِ الْخَبَرِ (حقيقَتِه) ؛ فابتدَرَتْ (أسْرَعَتْ) قائلةً :

«لقدْ أيْقنتُ ـ اليومَ ـ أنَّ تلكَ الدَّوابَّ الَّتى شكَّكْتَنى فى حقيقتِها ـ مُنذُ أَيَّامٍ ـ لَيستْ إلَّا أوْلادِى .

وقدْ زالَ اللَّبْسُ والشَّكُّ ، وتأَكَّدَ لِى ذلكَ منْ كلامِ عَمِّى حين رآها.

وهأنَذِى أدْعُوكَ لزِيارَتِهَا ، ولَيسَ الْخَبَرُ كالعِيانِ» .

٧ ـ «بَناتُ هُبَيْرَةَ»

فَسارَ مَعَها «أبُو بُرَيصٍ» حتَّى وَصَلَا إلى شاطئِ البِرْكَةِ ، فَرأى ما أدْهَشَهُ وحيَّرَه . أتعْرِفُونَ ماذا رأى ؟

لقدْ أبْصرَ «بَناتِ هُبيرةَ» : تلكَ الدَّوابَّ الرَّمادِيَّةَ اللَّوْنِ ، قدْ نبَتتِ الأَيْدِى فى أجْسادِها ، وقَصُرَتْ أذْنابُها . فاشْتدَّ عَجبُهُ ، والْتفَتَ إلى «دابَّةِ النَّهْرِ» يَسْأَلُها الصَّفْحَ قائلًا :

«لقدْ أخْطَأْتُ حينَ شَكَّكْتُكِ فى أمْرِ هذِه الدَّوابِّ ؛ فاسْمَحِى لى أنْ أَزُفَّ إليْكِ تَهْنِئاتِى الْخالصةَ بأطْفالِكِ الصَّغيراتِ» .

فقالتْ «دابَّةُ النَّهْرِ» مَزْهُوَّةً فخورةً :

«أشكُرُ لكَ إخْلَاصَك ووَلاءَك . وقدْ حَمِدْتُ اللهَ ـ سُبْحانَه ـ عَلى أنَّهُ لَمْ يفجَعْنى فى أَمَلِى. وقدْ أخْبَرَنِى عَمِّى ـ حينَ سألْتُهُ ـ بِأن هذهِ البَناتِ الصَّغيرةَ ـ حينَ تَنْتهِى منْ فَتْرَةِ الطُّفولَة ـ تَصْغُر رُءوسُها شيْئًا فَشيْئًا ، حتَّى تَتناسَبَ هىَ وأجْسادُها . ثُمَّ تُصْبِحُ ـ بعدَ ذلكَ ـ ضفادِعَ تامَّةَ التَّكْوينِ مِثْلَنا ، جَميلةَ الشَّكلِ ، مُخْضَرَّةَ اللَّوْنِ ، حَسَنةَ التَّقْسيمِ والتَّقْوِيمِ» .

٨ ـ عاقِبةُ الطَّيشِ

ثُمَّ سَمِعَ الصديقانِ صَوتًا ضعيفًا يُنادِى ويُغَوِّثُ (يَسْتَغيثُ) طالبًا النَّجْدةَ . فالْتَفَتَا يَتعَرَّفانِ مَصْدرَ الصوْتِ . وما أَدْرَكا جَلِيَّةَ الأمْرِ (حقيقَتَه) ، حتى هالَهُمَا ورَوَّعَهُما (خَوَّفَهُما ورعَّبَهُما) ما حَدَثَ . فقدْ رَأيا طِفلًا مِن أطفالِ «دابَّةِ النهرِ» اسمُه : «العُلْجُومُ» ، دفَعَهُ الطَّيشُ والغُرورُ إلَى الخُروجِ مِن البِرْكةِ إلى الشاطِئِ . ولم يَكَدْ يَفعلُ حتى اشْتبَك فى الحشائشِ ، ولم يَقْدِرْ عَلَى العَوْدةِ مِن حَيثُ أتَى . وارتَمَى ذَلكَ الطِّفلُ علَى ظَهرِهِ ، وسَرَتِ الرِّعْدةُ والرِّعشةُ فِى جِسْمِهِ الصَّغيرِ .

فسألَ «أبـو بُرَيصٍ» صَـديقَتَه مُتَعجِّبًا : «ماذا أصابَ التاعِسَ المِسكينَ ؟ لقدْ يُخَيَّلُ إلى رائيهِ أنه يَخْتَنِقُ ويُوشِكُ أنْ يَفقِدَ الحَياةَ» .

فقالت «دابَّةُ النهرِ» : « صَدَقتَ ـ يا صاحِ ـ فقدْ أخبَرَنى عمِّى بِأنَّ أطفالَنا تَتَنَفَّسُ فى الماءِ كما يَتنفَّسُ السَّمَكُ . ولقد أخطَرَ هذا الطائشُ نَفسَه (أدْخلَها فى الخَطرِ، وعرَّضَها لِلْهلاكِ) حين خرَج إلى الشاطِئِ . وها هوَ ذا يخْتنِقُ ـ كما تَرَى ـ فكَيْفَ أصنَعُ ؟» .

ثمَ عَنَّتْ (عَرَضتْ) لها فِكْرةٌ مُوَفَّقةٌ سَدِيدةٌ ؛ فأسْرَعتْ إلى طِفلِها ، ودَفَعتْه بِفمِهَا قَلِيلًا ، ثمَّ قَذَفتْ بِه إلى الماءِ .

فَلبِثَ المِسكينُ طافِيًا عَلى وَجْهِ الماءِ بِلا حَراكٍ ، وقدْ يَئِسَ مِنْ حَياتِه كُلُّ مَن رآهُ . ولكنَّ إخْوَتَه وأصدِقاءَه أسرَعُوا إلَيْه ، وظَلُّوا يَسبَحُون (يَعومُون) حَوْل «العُلْجومِ» ، ويَنْظُرون إليْه بِعُيونٍ مِلْؤُها الجَزَعُ والأَسَفُ . فقالَتْ «أُمُّ هُبَيْرةَ» فى حُنُوٍّ وإشْفاقٍ :

«لقدْ ماتَ وَلَدِى العَزِيزُ . فَواحَزَنًا عَليْه !» .

فصاح «أبو بُرَيصٍ» فَجْأة : «كَلَّا . لمْ يَمُتْ ، ولا يَزالُ فى الأَمَلِ فُسْحةٌ ـ يا صَديقَتى ـ فإنِّى أرَى جِسمَه يَتحرَّكُ . ها هوَ ذا يُحَرِّكُ إحْدَى يدَيْه» .

٩ ـ نَجاةُ «العُلْجومِ»

فَدَبَّ الأَمَلُ فى نُفوسِ الحاضِرينَ ، حينَ رأوْا ذَلِكَ الضِّفْدَعَ الصَّغيرَ يَعودُ إلى الْحَياةِ شيْئًا فَشيْئًا . ولَمْ يَلْبَثْ أنِ اسْتعادَ ذاكِرَتَهُ ، وسألَ مَنْ حَوْلَهُ :

«تُرَى أيْنَ أنا ؟ وما أصابَنى ؟ آهٍ ! لقدْ ذَكرْتُ الآنَ كلَّ شَىْءٍ ، وعرَفْتُ خَطَرَ ما أقْدَمْتُ عليه حينَ قفَزْتُ منَ الْماءِ إلى كُومَةِ الْحَشائِشِ ؟ وإنَّما حَفزَنى إلى ذلكَ شَوْقِى إلى رُؤْيَةِ هذا السَّيِّدِ الطَّوِيلِ الأَنْفِ ، الَّذِى يَتحدَّثُ ـ أكْثَرَ الْوَقْتِ ـ معَ أُمِّىَ الْحَنُونِ . ولَنْ أُجازِفَ مَرَّةً أُخْرَى ، وحَسْبِى أنْ كُتِبَتْ لِىَ السَّلامةُ بَعدَ الْيَأْسِ !» .

ثمَّ هَتفَ الضِّفْدَعُ قائلًا : «شُكْرًا لِلْماءِ !» .

فردَّدتْ إِخْوتُهُ هُتافَهُ ، فَرِحة مُستبْشِرَةً .

ثمَّ عاوَدهُ المَرَحُ ، وَشارَكَهُ فى مَرَحِهِ أخَواتُهُ : الشِّرْغُ ، والشُّرْنوغُ ، وأَبو هُبَيْرةَ ، ودابَّةُ الماء ، والقُرَّةُ ، والعُدْمُولُ ، والهاجَةُ ، والهُوَيْجَةُ . وَغاصُوا مَعهُ إلى قاعِ الماء مَسرورينَ بِنَجاتِهِ من هَلاكٍ مُحَقَّقٍ .

١٠ ـ دُرُوسُ النَّطِّ

وَلَمْ يُوفِ الصَّيْفُ عَلَى نِهايتِهِ ، حتَّى كَبِرَتْ أَطفالُ «دابَّةِ النَّهرِ» واسْتَخْفَتْ أذْنابُها الطَّوِيلَةُ ، وسَمِنتْ أجْسادُها النَّحيلةُ .

وكانتْ «بناتُ هُبَيْرَةَ» ـ فى تِلكَ الأَثناءِ ـ تُقْبِلُ على الطَّعامِ فِى شَرَهٍ عَجيبٍ . وقد نشَأَتْ لكُلِّ ضِفْدَعٍ مِنهُنَّ يَدانِ قصيرَتانِ ، وَرِجْلانِ طَويلَتانِ .

وقدْ عَراهُنَّ (أَلَمَّ بِهنَّ) الخَوْفُ حينَ خرَجْنَ منَ الماءِ ـ لِلْمَرَّةِ الأُولى ـ ولكنَّ أُمَّهُنَّ شَجَّعَتْهُنَّ على اتِّباعِهَا ؛ حتَّى إذا وَصَلْنَ إلى الحَشائشِ ، ظَلِلْنَ يُمَرِّنَّ أَنفُسَهُنَّ على القَفْزِ والنَّطِّ .

وَقد أَوْصَتْ «أُمُّ هُبَيْرَةَ» بناتِهَا أَن يَقْتَصِدْنَ فى قَفزِهِنَّ ؛ حتَّى لا يَدْفعَهُنَّ الطَّيشُ والحَماقةُ إلى الهَلاكِ .

وَقدِ اجتمَعَتِ الضَّفادِعُ الكبيرَةُ أَسْرابًا (جَماعاتٍ) ؛ لتَشهَدَ ذلكَ التَّمْرِينَ ، وَأُعْجِبَتْ بِما أظْهرَتْهُ تِلكَ الصَّغيراتُ منَ الحِذْقِ والبَراعَةِ والذَّكاءِ . على أنَّ إحْدَى هذه الضَّفادِعِ ، واسْمُها «القُرَّةُ»، قَفَزَتْ ـ بِلَا تَبصُّرٍ ـ قَفْزَةً عاليَةً ؛ فَهوَتْ على أَنْفِها ، فَتهشَّمَ وتَحَطَّمَ .

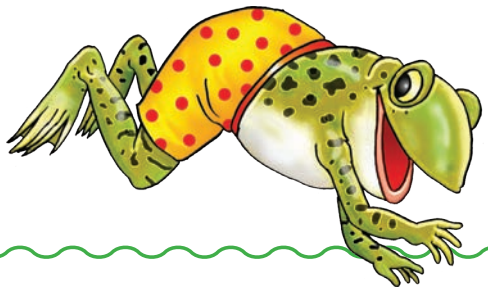

١١ ـ دُرُوسُ الصَّيْدِ

وَما زالَتْ «دابَّةُ النهرِ» تُعَلِّمُ ذَرارِيَّهَا (أَوْلادَها) : كَيفَ تَبتَلِعُ الحَشَراتِ والخَنافِسَ التى تُصادِفُها فى طَرِيقِهَا ؟ وَكَيْفَ تَصْطادُ أَسْرابَ الذُّبابِ (جَماعاتِهِ) الرَّاقِصَةَ حَوْلَ الغَدِيرِ ؟ وهوَ أَشْهى طَعامٍ تَرْتاحُ إلَيْهِ الضَّفادِعُ . وما تَذَوَّقَتْهُ صِغارُها حَتى اَثَرَتْهُ (اخْتارَتْهُ وفَضَّلَتهُ) على كلِّ شَىْءٍ ولمْ تَرْضَ بِهِ بَدِيلًا .

١٢ ـ دُرُوسُ المُوسِيقَى

وَاعْتزَمَتْ «أُمُّ هُبَيْرَةَ» أن تُعَلِّمَ صِغارَها : كيْفَ تَنِقُّ (كيف تَصِيحُ) ، وَكيْفَ تُنَقْنِقُ (كيْفَ تُصَوِّتُ صَوتًا يَفْصِلُ بَيْنَهُ مَدٌّ وَتَرْجِيعٌ) ، وَكيْفَ تُنْشِدُ أجْمَلَ الأَناشِيدِ ، وَتُغَنِّى أحْسنَ الأَغانِيِّ الْمُسْتَفِيضَةِ الشُّهْرَةِ بَيْنَ الضَّفادِعِ ؟ وَكانَ صَوْتُها أبَحَّ (فيهِ بُحَّةٌ وَخُشُونَةٌ وَغِلَظٌ) شَأْنُ أُمَّاتِ الضَّفادِعِ دائمًا ؛ فَلَمْ تَرَ بُدًّا مِنْ أنْ تُوصِىَ شَيْخَ الضَّفادِعِ أنْ يُلَقِّنَهُنَّ المُوسِيقَى بِصَوْتِهِ الْجمِيلِ .

وَكانتْ هذهِ الأَبْناءُ تُقْبلُ على دُروسِهَا فى جدٍّ واجْتهادٍ وَحَماسَةٍ . فَإِذا انْتَهتْ منْ حِفْظِ التَّمريناتِ الْمُوسِيقِيَّةِ ، انْتَقَلتْ إِلى التَّدَرُّبِ على إِلْقاءِ الْأَغَانِى الشَّعْبِيَّةِ الذَّائِعَةِ بَيْنَ الضَّفادِعِ .

١٣ ـ أناشيدُ الضفادِعِ

وكانتِ الضَّفادِى (الضفادعُ) تُنَظِّمُ صُفوفَها عَلَى شاطِئِ الغَدِيرِ ، حَيْثُ تَقْضِى السَّاعاتِ الطِّوالَ ، وَهىَ لا تَكِلُّ ولا تَنِى (لا تَضعُفُ هِمَّتُها ولا يَفْتُرُ عَزْمُها) عنْ مُواصَلَةِ النَّقِيقِ. ومَتى تَأَلَّقَتْ (أضاءَتْ ولمَعَتْ) كواكِبُ السماءِ ، رَأَيتَ صِغارَ الضفادعِ جاثماتٍ (مُقِيماتٍ) عَلَى أوْراقِ «النِّيلُوفَرِ» ، حَيثُ تَقُصُّ علَى العالَمِ أَحْلامَ سَعادَتِهَا . ولا تزالُ تُحَيِّى مصابيحَ السَّماءِ (نُجُومَها) بِأناشيدِهَا حتى تَسْتسْلِمَ إلى رُقادِها الهَنِئِّ فى أمْنٍ وسَلامٍ .

١٤ ـ خاتِمَةُ القِصَّةِ

وهكذا عاشَتْ «دابَّةُ النهْرِ» هانِئَةً وَسْطَ أُسرَتِها الْجَميلةِ ، وعاشَ ـ إلَى جانبِها ـ صديقُها الوَفِىُّ الْمُخْلِصُ : «أبو بُرَيْصٍ» ، يُقاسِمُهَا السَّعادةَ والهَناءَ .

آراءٌ فِى مَكْتَبَةِ الْكِيلَانِىِّ لِلأَطْفالِ
الأَدِيبُ الْكامِلُ الأَدَواتِ

عِنْدَما أَتاحَ لِىَ الْقَدَرُ ـ هذِهِ الْمَرَّةَ ـ دُخُولَ «مصْرَ» بَعْدَ غَيْبَةِ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً عَنْ هذا الْوَادِى الْمُقَدَّسِ ، أَلْفَيْتُ ـ فِيما أَلْفَيْتُ مِنْ كُنُوزِهَا ـ خَبِيئَةً مَكْنُونَةً يُقالُ لَها : «السَّيِّدُ كامل الكيلانى» ؛ إِذْ لَيْسَ مِنْ ذَوِى الْمَناصِبِ الرَّسْمِيَّةِ الْعالِيَةِ ، وَلَكِنَّهُ مِنْ ذَوِى الْمَناصِبِ النَّفْسِيَّةِ الْعالِيَةِ .. أَقامَهُ أَدَبُهُ بِالْمُقامِ الَّذِى قَعَدَ عَنْهُ مَنْصِبُهُ . وَما زالَتْ رُتْبَةُ الْعِلْمِ أَعْلَى الرُّتَبِ .

فَمَنْ عَرَفَ هذا الْجِهْبِذَ الْفَذَّ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ ، رَأَى فِيهِ بَحْرًا زَخَّارًا يُغْرِقُ مُنافِسِيهِ بِكُلِّ لُجَّةٍ ، وَعَثَرَ عَلَى خِزانَةِ أَدَبٍ مُكْتَظَّةٍ ، صاحِبُهَا حُجَّةُ اللُّغَةِ لا «ابْنُ حِجَّةَ» .. نادِرَةُ زَمانِهِ فِى الْحِفْظِ ، وَأُعْجُوبَةُ عَصْرِهِ فِى النَّقْدِ ، وَآيَةٌ مِنْ آياتِ اللهِ فِى سَلامَةِ الذَّوْقِ ، وَالْمَثَلُ الْبَعِيدُ فِى الْبَدِيهَةِ ، وَالْمُسْتَوْلِى عَلَى الأَمَدِ فى حَرارَةِ النُّكْتَةِ ، وَالْقِياسُ الأَتَمُّ فى حُسْنِ الْمُحاضَرَةِ .

هذا إِلَى أَخْلاقٍ رَضِيَّةٍ ، وَمنازِعَ أَبِيَّةٍ، وصَفاءِ سَرِيرَةٍ ، وَوَفاءٍ شِيمَةٍ ؛ وَلا خَيْرَ فِى عِلْمٍ لَمْ يُزَيِّنْهُ خُلُقٌ، ولا جَداءَ فِى دَرْسٍ لَيْس وَرَاءَهُ نَفْسٌ .

وَهُوَ فِى هذا الْعَصْرِ مِنْ سُبَّاقِ حَلْبَتَيِ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ :

يَكْفِيهِ فَخْرًا وَأَجْرًا سِلْسِلَةُ الْكُتُبِ الَّتِى أَلَّفَها لِلأَطْفالِ ، فَشاعَتْ فِى الأَقْطارِ ، وَطارَتْ شُهْرَتُها كُلَّ مَطارٍ .

وَقَدْ كانَ فِيها نَسِيجَ وَحْدِهِ ؛ فَأَوْدَعَ فِيها جَمِيعَ ما تَلْزَمُ الأَحْداثَ مَعْرِفَتُهُ مِنْ أُمُورِ الْكَوْنِ ، عَلَى حَسَبِ دَرَجَةِ السِّنِّ . وَذلِكَ بِأُسْلُوبٍ مَتِينٍ تَتَجَلَّى فِيهِ قُوَّةُ اللُّغَةِ ،

وَتُنَشَّأُ بِهِ عِنْدَ الأَحْدَاثِ مَلَكَةُ الْعَرَبِيَّةِ ، وَبِلَهْجَةٍ رَقِيقَةٍ تُناسِبُ رِقَّةَ قَلْبِ الطِّفْلِ ، وتَزِيدُهُ رَغْبَةً فِى الدَّرْسِ ، وَتَطْبَعُهُ عَلَى الأَخْلاقِ الْفاضلَةِ ، وَتُنَشِّئُهُ فِى الْحِلْيَةِ وَهُوَ مُبِينٌ .

فَكانَتْ هذهِ الْمَأْثَرَةُ للسَّيِّدِ الْكِيلانِىِّ مِنْ أَبْكارِ الْمَآثِرِ ، لا يَتَمارَى فيها مُتمارٍ : سَدَّ بها ثُلْمَةً فِى عِلْمِ التَّرْبِيَةِ الْعَرَبِيَّةِ كانَتْ مِنْ أَهَمِّ عَوارِهَا ، وَحَقَّقَ ـ فِى مُهِمَّةِ تَهذِيبِ النَّشْءِ ـ أُمْنِيَّةً هِىَ مِنْ أَعْظَمِ لُباناتِها . فَكانَتْ لَهُ رِيَاسَةُ هذا الْفَنِّ بِحَقٍّ ، وَما ظَلَمَ مَنْ قالَ : إِنَّهُ اسْتَأْثَرَ فِيهِ بِالسَّبْقِ . فَجَزاهُ اللهُ خَيْرَ ما يَجْزِى عِبادَهُ الْعامِلِينَ .

وَهذِهِ مِنِّى شَهادَةُ مَنْ رَأَى وَسَمِعَ ، أُشْهِدُ بِهَا عَلَىَّ اللهَ وَعِبادَ اللهِ : «وَلا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللهِ . إِنَّا إِذًا لَمِنَ الآثِمِينَ» .

وَآخِرُ دَعْوانا أَنِ الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعالَمِينَ .

مصر فى ٢١ جمادى الأولى سنة ١٣٥٨ **شكيب أرسلان**

أُسْلُوبُ الكيلانِىِّ

... وَتَمْتازُ تَواليفُ الكيلانىِّ بِالْبَساطَةِ فِى التَّعْبِيرِ ، والصِّحَّةِ فِى الأَلْفاظِ ، والرِّقَّةِ فِى التَّرْكِيبِ ، والدِّقَّةِ فِى الأَداءِ ، والسَّلاسَةِ والسُّهُولَةِ ، مَعَ اجْتِنَابِ كُلِّ غَرِيبٍ وَنابٍ ، وَمَعَ تَوَخِّى التَّدَرُّجِ بِالطِّفْلِ .

هذا إِلَى الشَّكْلِ الْكامِلِ ـ حَتَّى يُؤَمَّنَ الْخَطَأَ ـ والإِكْثارِ مِنَ الصُّوَرِ الْجَمِيلَةِ الْمُغْرِيَةِ بِالْقِراءَةِ ...

إبراهيم عبد القادر المازنى